قَطْيَة

« جمرك مصر الشرقى فى العصور الوسطى »

قَطّيَة أو قَطْيَا بالفتح ثم السكون وياء مفتوحة ، قرية فى طريق مصر فى وسط الرمل قرب الفَرَما ، وقُطَيَّة كأنه تصغير قَطَاة من الطير ، وهو ماء بين جبلى طىء وتيماء [١] . وقد ذكرت بعض المصادر أن قطية تقع فى الطريق بين مصر والشام [٢] بالرمل المعروف بالجفار ، بالقرب من ساحل البحر [٣] المتوسط فى أول شبه جزيرة سيناء من ناحية الشمال الغربى ، وقد حددها البعض بأنها فى الطريق بين القنطرة والعريش فى الجنوب الشرقى من محطة الرمانة ، وعلى مسافة عشرة كيلو مترات منها ، وتبعد عن القنطرة خمسة وأربعين كيلو مترا ، إذ تقع فى الشمال الشرقى منها [٤] .

وقد ظهر اسم قطية على الطريق بين مصر والشام ، وقد اجتازها الرحالة والتجار والعساكر خلال القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى [٥] ، كما أشار بعض الجغرافيين فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى إلى أهمية تلك المنطقة التى تقع

---

(١) ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٤ طهران ١٩٦٥ م ص ١٤٤ .

وانظر ض ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، ليدن ١٨٥٢ م ، ص ٤٣٥ .

(٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ق ٣ ، دار الكتب ١٩٧٠ م ، هامش ص ٣٠٣ .

ويذكر أبو الفدا : « ومما هوداخل فى حد مصر الجفار ، وهو المعروف برمل مصر ، وبه منازل للسفارة ، أشهرها وأكبرها قطية ، ثم الورادة ، وبهما سكان ونخيل » . انظر : تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠ م ص ١٠٨ .

وانظر : عبد العال الشامى : مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموى ط ١ ، الكويت ١٩٨١ م ص ٢٠ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا جـ ٣ نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ص ٤٠١ .

وانظر : ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ الطبعة الأولى بولاق ١٣٠٩ هـ ص ٥٢ .

– الجفار : « جمع جفر ، وهى البئر القريبة القعر الواسعة لم تطو » وقد سميت الجفار لكثرة مابها من هذه الآبار التى كانت من وراء قيام الواحات . انظر : عبد العال الشامى : نفس المرجع ص ٥٨ .

ويذكر ابن دقماق أن الجفار سمى جفارًا لأن الجمال تجفر فيه ، أى تهلك من السير لبعد مراحله .

انظر : الانتصار بواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص ٥٢ .

(٤) محمد رمزى : القاموس الجغرافى ق ١ القاهرة ٥٣ – ١٩٥٤ م ص ٣٥١ .

انظر الخريطة فى آخر البحث موضحًا عليها موقع قطية .

(٥) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ليدن ١٣٠٦ هـ ص ١٠٣ .

وانظر : ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ٨٢ – ١٩٨٥ جـ ١ ق ١ ص ٢٨ .

بها قطية ، ولم يشيروا إلى اسم قطية صراحة ، إذ ورد « يردها التجار فى البحر والبر ليلا ونهارًا من الفسطاط والشام » (١) .

ويبدو أن أهمية قطية – كمحطة أو نُزُل ينزل بها المسافرون والسفراء والتجار – بدأت تظهر فى أوائل القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى بعد ما أخذت مكانة الفرما تقل (٢) . فنقرأ فى مصادر ذلك القرن أن قطية أصبحت نقطة جمارك للداخل إلى مصر عن طريق الشام والخارج منها (٣) ، ذلك أن ملوك بنى أيوب بدءًا من عهد الملك الكامل محمد اتخذوها نقطة للقاء القادمين من كبار البيت الأيوبى من الشام ، إذ فى شوال ٦٣٤ هـ / يونيو ١٢٣٦ م « وصل الملك الناصر صلاح الدين داود ابن الملك المعظم عيسى ، وتلقاه السلطان بنفسه إلى منزلة قطيا » (٤) ، وفيها استقبل القاضى بدر الدين بن الحسن السنجارى سنة ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م ، وسنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م ، الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد البادرائى ، الذى أرسله الخليفة العباسى ليصلح بين الملك المعز أيبك فى مصر والملك الناصر يوسف فى الشام (٥) ، وعند قطية أيضًا تفرقت العساكر من حول الناصر يوسف الأيوبى سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م – عندما فر من وجه المغول – فأصبح وحيدًا وقبض عليه (٦) .

وهكذا بدأ اسم قطية يرد فى المصادر المعاصرة مقترناً بأهمية تلك المنطقة على حدود مصر الشرقية ، وتذكر بعض المصادر أنه عندما خرج قاضى القضاة شمس الدين

---

(١) ابن حوقل : كتاب صورة الأرض ، ق ١ الطبعة الثانية ليدن ١٩٦٧ م ص ١٤٤ .

(٢) عباس عمار : المدخل الشرق لمصر « أهمية جزيرة سيناء كطريق للمواصلات ومعبر للهجرات البشرية » مقال بمجلة الجمعية الجغرافية ط ٢ القاهرة ١٩٤٥ م ص ٢٣ ، ٤٧ .

وانظر : أحمد رمضان أحمد : شبه جزيرة سيناء فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٧ ص ٧٥ ، ٨١ .

(٣) الدوادارى : الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق / سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٧٢ م ، هامش ص ٢٨ . وانظر : عباس عمار : نفس المرجع ص ٥١ .

(٤) الدوادارى : نفس المصدر ص ٣١٧ .

(٥) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٢ طبعة ثانية القاهرة ١٩٥٧ م ص ٣٨٢ – ٣٨٣ ، ٣٩٧ – ٣٩٨ .

(٦) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ مصر ١٢٨٥ ص ١٩٠ – ١٩١ ، وأيضًا : الدوادارى : الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية ، تحقيق أولرخ هارمان ، القاهرة ١٩٧١ ص ٤٦ .

وكذلك : العينى : عقد الجمان فى تارخ أهل الزمان (١) تحقيق / محمد محمد أمين ، القاهرة ١٩٨٧ م ص ٢٣٣ – ٢٣٤ ، ٢٤٨ .

وانظر : سعد بن محمد الغامدى : الملك الناصر يوسف والمغول ، مقال بمجلة آداب الاسكندرية المجلد ٣٤ ، ص ١٢٥ .

ابن خلكان من مصر فى الخميس ٢٣ المحرم ٦٧٧ هـ / يونيو ١٢٧٨ م ليتولى قضاء دمشق وأعمالها بدلا من شمس الدين بن الصائغ ، خرج أهالى دمشق لتلقى واستقبال ابن خلكان فوصل بعضهم إلى قطية [١] ، ويتردد فى المصادر أيضًا اسم قطية فى مناسبات عابرة ، مثل ؛ وصل الأمراء إلى قطية ووصل السلطان إلى قطية ، ومات فلان ودفن بقطية ، وذلك خلال القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى [٢] .

ولعل أهمية تلك المنطقة – أعنى قطية – دفعت سلاطين المماليك إلى الاهتمام بها اهتماماً كبيرًا منذ أوائل القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، فأصبحت بمثابة نقطة جمارك ، وغدا لها ناظرٌ فى سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ – ١٣٠٤ م مضافة إلى الأعمال الشرقية وأشمون الرمان [٣] . ونظمت لها السلطنة المملوكية إدارة لتحصل على نسبة من التجار « وتُؤخذ منهم زكاة ، وتفتش أمتعتهم » [٤] . وقد قدر بعض المعاصرين تلك النسبة المأخوذة من التجار بقيمة العشر [٥] .

ولا شك فى أن هذا الدخل لقطية قد غير من وضعها كنقطة صغيرة إلى ورود اسمها مسبوقًا بكلمة مدينة ، فيذكر ابن تغرى بردى فى حوادث ٧٨٤ هـ / ٨٢ – ١٣٨٣ م ، أنه حدث كذا « بمدينة قطية » ونزل فلان « بمدينة قطية » [٦] وسار السلطان إلى أن وصل « مدينة قطية » سنة ٧٩٢ هـ / ١٣٩٠ م [٧] . وبالرغم من ذلك فإنها لم تصل إلى درجة الإقليم ، ولكنها كانت مدينة مستقلة تمام الاستقلال ، ولا يمكن الوصول إلى الديار المصرية ولا الخروج منها إلا بالمرور من قطية [٨] .

---

(١) الكتبى : عيون التواريخ ، جـ ٢١ تحقيق / نبيلة عبد المنعم داود ، وفيصل السامر ، العراق ١٩٨٤ ص ١٧٠ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٣ القاهرة ١٩٣٩ م ص ٦٩٧ ، ٧٠١ ، ٩٠٥ .

(٣) الدوادارى : الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر ، تحقيق / هانس روبرت روتمر ، القاهرة ١٩٦٠ م ص ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٧ .

(٤) ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار جـ ١ باريس ١٩٨٨ م ، ص ١١٢ .
وانظر : عباس عمار : نفس المرجع ص ٥١ .

(٥) ابن دقماق : انتصار بواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص ٥٣ ، وانظر : المقريزى : البيان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، تحقيق / عبد المجيد عابدين ، القاهرة ١٩٦١ م هامش ص ٦١١ .

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ دار الكتب ، ١٩٥٠ م ص ٢٧٥ .

(٧) المصدر السابق جـ ١٢ ص ٦١ .

(٨) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق بولس راويس ، باريس ١٨٩٤ م ، ص ٣٤ .

مقبل الدوادار الحسامى إلى قطيا تحت تأثير العربان ، وفر من ميناء الطينة إلى عرض البحر (١) .

وعلى أية حال فقد أدرك سلاطين المماليك أهمية ذلك الميناء فاهتموا به وبتجديده لارتباطه بقطية ، منطقة الجمارك الآنفة الذكر ومحور بحثنا ، إذ كثرت إغارات الفرنج البحرية على ميناء الطينة ، ويحدثنا المقريزى عن أمثلة كثيرة لهذه الإغارات ، ففى أول المحرم سنة ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م أسر الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير طاز أربعة وعشرين من الفرنج قصدوا الهجوم على ذلك الميناء (٢) . وكانت هجماتهم لا تنقطع بين حين وآخر ، ففى منتصف شهر ربيع الآخر ٧٨٥ هـ / ١٣٨٣ م هجموا عليها وأسروا سبعة أفراد من أهلها ، وقتلوا واحدًا ، ثم اتجهوا إلى دمياط وباعوا بها الأسرى (٣) ، ثم فى ربيع الآخر سنة ٨١٤ هـ / ١٤١١ م اتجهوا من الاسكندرية إلى ميناء الطينة بمراكبهم « فسبوا نساء أهلها » وحدثت معركة بينهم وبين أهلها ، وبالرغم من مساعدة أهالى دمياط لأهالى الطينة إلا أن الفرنج تمكنوا من قتل عدد من الأهالى ، واستولوا على مالهم ونهب أمتعة التجار (٤) ، وتكررت تلك الهجمات مرات عديدة مثلما حدث فى شوال ٨١٤ هـ / ١٤١٢ غير أن الفرنج تركوا ميناء الطينة تحت هجوم أهلها ، فاتجهوا إلى دمياط حيث قاتلهم أهلها (٥) ، وقد أدركت السلطنة المملوكية ذلك ، فكانت القوات الحربية البحرية عندما تهاجم الفرنج فى البحر تعود إلى مصر من ميناء الطينة مثلما حدث فى شوال ٨٢٨ هـ / ١٤٢٥ م عند رجوعهم من الهجوم على قبرص (٦) . كما أرسلت السلطنة تجريده لحماية الطينة فى ذى القعدة ٨٤٤ هـ / ١٤٤١ م من الهجوم المشترك من الفونسو صاحب قشتالة وأهل رودس (٧) .

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ٢ ص ٥٦٧ .

(٢) المصدر السابق جـ ٣ ق ١ ص ١٨٠ .

(٣) المصدر السابق جـ ٣ ق ٢ ص ٤٩٠ .

(٤) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ١ ص ١٨٢ .

(٥) المصدر السابق جـ ٤ ق ١ ص ١٩٤ .

(٦) المصدر السابق جـ ٤ ق ٢ ص ٦٩٤ – ٦٩٥ .
وانظر : سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٥٧ م ، ص ١٠١ .

(٧) المقريزى : نفس المصدر جـ ٤ ق ٣ ص ١٢٢٧ – ١٢٢٨ .

ومن ثم نجد أن الفرنج ينزلون إلى بر الطينة ويتوغلون إلى قطية فيهجمون على التجار ويستولون على أملاكهم ، لأن الطريق من قطية إلى العريش كان يبدو خلوًا من الناس ، فاهتم سلاطين المماليك بإقامة برج بالقرب من الطينة على البحر المتوسط ، وكان هذا البرج مربعَ الشكل ، طول ضلعه ثلاثون ذراعًا ، حيث أخذت حجارته من خراب مدينة الفرما ، كما أحرق الجير من حجارتها أيضًا ، ونفذ بناء هذا البرج الزينى عبد القادر بن فخر الدين بن عبد الغنى بن أبى الفرج ، وفى شهر ربيع الآخر ٨٢٨ هـ / فبراير - مارس ١٤٣٤ م ، إبان عهد السلطان الأشرف برسباى ، ثم بُنِىَ وشُحن بالأسلحة ، وأقيم فيه خمسة وعشرون مقاتلا ، منهم عشرة فرسان ، كما أحاط به عربان الطينة لحراسته (١) .

والذى لاشك فيه أن تلك التحصينات قد أضعفت من هجمات الفرنج على الطينة ، وأبعدت نظرهم فى بعض الأوقات عنها ، لأن هناك إشارات تشير إلى وقوف السفن المملوكية لتلك الهجمات بالمرصاد دائمًا (٢) .

وتباعًا حاول سلاطين المماليك الاهتمام بميناء الطينة كإحدى الموانىء المصرية العامة ، ففى عهد السلطان خُشقدم ربيع الآخر ٨٦٥ هـ / يناير - فبراير ١٤٦١ م كلف الأمير بردبك الداودار الثانى ، والأمير ناصر الدين نقيب الجيش بالتوجه إلى ميناء الطينة لإقامة برج آخر (٣) ، ويبدو أنه اكتمل بناؤه (٤) .

وليس أدل على أهمية ذلك الميناء والأبراج التى أُقيمت فيه من أن العثمانيين عندما استولوا على الشام وعزموا على الدخول إلى مصر ، استولوا على الطينة والقلاع التى بها فى ذى الحجة ٩٢٢ هـ / ديسمبر ١٥١٦ - يناير ١٥١٧ م ، وهرب من بها من المماليك وغيرهم (٥) ، بالرغم من أنها كانت نقطة عسكرية لحراسة الحدود (٦) .

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ٢ ص ٦٨٣ . وانظر : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٤ ص ٢٧٢ .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٤ ص ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٩٨ .
وانظر : ايرا مارين لابيدوس : مدن الشام فى العصر المملوكى ، ترجمة سهيل زكار دمشق ١٩٨٥ ص ٧٦ .
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٦ تحقيق : جمال الشيال ، القاهرة ١٩٧٢ ص ١٥٦ .
(٤) ابن شاهين : نفس المصدر ص ٣٤ .
(٥) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٥ ص ١٣٣ .
(٦) المقريزى : البيان والإعراب ، هامش ص ٦١ .

وعلى هذا فإن ميناء الطينة كان يتبع مدينة قطية إداريا التى كان لها جهاز إدارى فيه الوالى والناظر والقاضى والشهود والمباشرون [١] والدواوين [٢] .

ويبدو أنه لم يكن لقطيه جهاز إدارى كامل إلا منذ بداية عصر سلاطين المماليك ، فبعد أن استقرت الأمور للسلطنة المماليكية وأدركت أهمية قطية أضافت نظرها مع أشمون الرمان والأعمال الشرقية فى سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ - ١٣٠٤ م إلى الأمير جمال الدين الذى كان نائب الكرك من قبل [٣] ، ثم تطور الأمر فأصبح لقطية والٍ [٤] من نهاية العقد الأول من القرن الثامن الهجرى / العقد الأول من القرن الرابع عشر الميلادى ، هو الأمير بدر الدين ميخائيل [٥] . ومما يلفت النظر أن والى قطية فى البداية كان برتبة أمير طبلخاناه [٦] ثم أصبح فيما بعد برتبة أمير عشرة [٧] وكانت تكتب إليه المخاطبات أحياناً عن نائب الشام بـ « ضاعف الله تعالى نعمه » الجناب العالى » [٨] . وأحيانا كان يكتب له عن النائب الكافل والأتابك بـ « صدرت والسامى » [٩] ، على أية حال فإنه عين لها والياً فى ٢٣ ذى القعدة ٧٣٦ هـ / يوليو ١٣٣٥ م الأمير عز الدين أيبك الحسامى أحد مقدمى الحلقة [١٠] . ولم يكن قد مضى عام حتى عزل الأخير وعُين مكانه الأمير نلبيه البريدى فى ١٦ ربيع الآخر ٧٣٧ هـ / نوفمبر ١٣٣٦ م [١١] .

---

(١) ابن دقماق : الانتصار جـ ٤ ص ٥٢ . وانظر المقريزى : البيان والإعراب هامش ص ٦١ .

(٢) ابن بطوطة : تحفة الأنظار ص ١١٢ . وانظر عباس عمار : نفس المرجع ص ٥١ .

(٣) الدوادارى : الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر ص ١١٧ .

(٤) الوالى : وكان هذا الاسم قديماً لا يسمى به إلا نائب السلطان . انظر السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، بيروت ص ٤٠ .

(٥) الدوادارى : الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر ص ١٦٧ .

(٦) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٦ ، ٢٧ ، جـ ٧ ، ص ١٥٨ .
أمير طبلخاناه : مرتبة حربية من مراتب أرباب السيوف فى مصر المملوكية ، صاحبها يلى أمير مائة مقدم ألف ، ويطلق على أمير طبلخاناه أيضًا أمير أربعين . انظر سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصرَ والشام ، القاهرة ١٩٦٥ ص ٤١٤ .

(٧) أمير عشرة : مرتبة حربية يكون فى خدمة صاحبها عشرة مماليك ، انظر سعيد عاشور : نفس المرجع ص ٤١٥

(٨) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٨ ص ٢٢٠ .

(٩) المصدر السابق والجزء ص ٢٢١ .

(١٠) المقريزى : السلوك جـ ٢ ق ١ ص ٤٠٣ .

(١١) المصدر السابق والجزء ص ٤١٠ .

ولا نريد أن نسرد أسماء ولاة قطية وفترات حكمهم طيلة العصور الوسطى ، وإنما نكتفى بالقول : إن السلطنة المملوكية لم تغض الطرف عنها حتى سقطت فى يد العثمانيين ، لكى يسترعى النظر عدة جوانب حول تعيين واختيار ولاة قطية ، الأول : المكان الذى يأتى منه الوالى ، والثانى : المكان الذى ينقل إليه ، والثالث : موقف السلطنة من أولئك الولاة وأولادهم فى حالة ارتكابهم جرائم ، والرابع : المال الذى كان يرسله والى أو نائب قطية إلى السلطنة المملوكية ، فتشير بعض المصادر إلى أن هناك أمراءَ أُسند إليهم نيابة ثغر دمياط مع ولاية قطية ، كما حدث عندما صدر أمر سلطانى للأمير علاء الدين على بن الطشلاق فى الثلاثاء ١٥ شعبان ٧٦٤ هـ / ٣١ مايو ١٣٦٢ م (١) ، وهذا لا يعنى أن قطية ليست ذات أهمية لعدم انفراد واليها بها ، ولكن ربما لقرب دمياط من قطية دفع السلطنة المملوكية لإخضاعهما لأمير واحد ، وخاصة إذا علمنا أن هذا الأمير استمر فترة طويلة فى ولاية قطية لكفاءته (٢) ، وليس أدل على ذلك من أنه انفرد بولاية قطية فى جمادى الآخرة ٧٦٩ هـ / يناير - فبراير ١٣٦٨ م (٣) . ثم عزل ذلك الأمير فى ذى الحجة ٧٧٠ هـ / يوليه ١٣٦٨ م ، ونُقل إلى ولاية قطية الأمير الشريف بكتمر الذى كان والى القاهرة (٤) . ثم عزل وعين مكانه أمير آخر كان معزولا من قبل عن قطية ، ثم عزل وعُين الأمير حسن السيفى أمير أخور (٥) فى ٢٦ شعبان ٧٨٩ هـ / سبتمبر ١٣٨٧ م (٦) .

وكان إذا تم نقل والى قطية فيتم تعيينه فى نيابة لاتقل عن قطية مكانه ، ففى جمادى الآخرة ٧٣٩ هـ / ديسمبر ١٣٣٨ - يناير ١٣٣٩ م ، ولى الفيوم عز الدين استادار قرا لاجين الذى كان والى قطية (٧) وفى ٢٣ رمضان ٧٦٤ هـ / يوليو ١٣٦٢ م نقل الشريف بكتمر بن على الحسنى من ولاية قطية إلى ولاية القاهرة (٨) .

---

(١) ابن إياس : نفس المصدر جـ ١ ق ٢ ص ٥ .
(٢) انظر ابن قاضى شهبة : تاريخ ابن قاضى شهبة ، مجلد ١ جـ ٣ ص ٣٦٩ .
وأيضًا الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان جـ ١ تحقيق : حسن حبشى ، القاهرة ١٩٧٠ ص ٢٢١ .
(٣) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ١ ص ١٥٧ .
(٤) ابن إياس : نفس المصدر جـ ١ ق ٢ ص ٩١ .
(٥) أمير أخور : إليه أمر الخيول والإصطبل . انظر السبكى : نفس المصدر ص ٣٦ .
(٦) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٢ القاهرة ١٩٧٠ م ص ٥٦٥ .
(٧) الشجاعى : تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون ، تحقيق بربارة سيفر ق ١ فسبادن ١٩٧٨ ص ٤٦ .
(٨) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ١ ص ٨٤ .

فى الوقت الذى نقل فيه ابن الطشلاق من ولاية القاهرة إلى ولاية قطية كما سبق ذكره ، فضلاً عن ذلك فإنه فى نهاية ربيع الآخر ٨٠١ هـ / يناير ١٣٩٩ استقر الأمير تاج الدين عبد الرزاق فى الوزارة بمصر منقولا من ولاية قطية (١) . وفى ٢١ ربيع الأول ٩١١ هـ / أغسطس ١٥٠٥ م نُقل الأمير أيدكى والى قطية نائباً لنيابة القدس (٢) .

ومما سبق يمكن القول : إن الولايات التى نُقل منها أو إليها أمراء وُلّوا ولاية قطية ليست بالقليلة الأهمية ، بل ذات مكانة عظيمة فى السلطنة المملوكية ، مما يجعلنا نقرر أن سلاطين المماليك اهتموا بقطيه برغم صغر حجمها ، وذلك لعلو شأنها ، وينهض دليلاً على ذلك أن هناك أميرًا من الأمراء يدعى روح لو نائب غزة نُقل إلى ولاية قطية ، ثم نُقل نائبًا لحلب ، ثم حصل على رتبة أمير مقدم ألف (٣) . وبعد ذلك عاد إلى قطية نائبًا فى ١٨ جمادى الآخرة ٩١٦ هـ / سبتمبر ١٥١٠ م (٤) . وهذه أول مرة نلاحظ إطلاق لقب نائب على والى قطية ، إذ تواتر فى المصادر المعاصرة لقب والٍ ، فربما الذى دفع ابن إياس إلى ذلك أن هذا الأمير قد ولى نيابات كبرى مثل غزة وحلب قبل أن يلى قطية مما جعله يطلق عليه لقب نائب قطية .

ولما لقطية من أهمية فإن السلاطين المماليك اتخذوا الإجراءات الصارمة ضد ولاتها وأولادهم عند ارتكابهم جرائم ، فقد ارتكب الأمير أحمد ابن والى قطية (على الطشلاق) جريمة ، فأمر السلطان برقوق فى ٦ رمضان ٧٩٣ هـ / أغسطس ١٣٩١ م بتوسيطه (٥) كما قبض السلطان فى صفر ٧٩٧ هـ / نوفمبر ١٣٩٤ م على الأمير سيف الدين جلبان الكمشبغاوى نائب قطية ، وسُفر بحراً من ميناء الطينة إلى ميناء دمياط (٦) ربما لجريمة ارتكبها هو الآخر .

وليس مراقبة ولاة قطية هو الأسلوب الأوحد لإخضاعهم إلى السلطنة المملوكية

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٢ ص ٩٢٤ . وانظر : ابن إياس : نفس المصدر جـ ١ ق ٢ ص ٥١٦ .

(٢) ابن إياس : نفس المصدر جـ ٤ ص ٨٢ .

(٣) أمير مقدم ألف : أعلى مراتب الأمراء فى عصر المماليك ، وهذه المرتبة خاصة بأرباب السيوف ويكون فى خدمة صاحبها مائة مملوك ، وهو فى نفس الوقت مقدم على ألف جندى من أجناد الحلقة وقت الحرب .
انظر سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٤١٥ .

(٤) ابن إياس : نفس المصدر جـ ٤ ص ١٩٣ .

(٥) ابن الفرات : نفس المصدر مجلد ٩ جـ ١ ص ٢٦٣ . وانظر المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٢ ص ٧٣٦ .

(٦) ابن الفرات : نفس المصدر مجلد ٩ جـ ١ ص ٣٩٨ .

فحسب ، بل إن الأموال التى طلبتها السلطنة من ولاة قطية هى الأخرى أداة لعدم استفحال خطر وزيادة ثراء أولئك الولاة ، فقد كانت الأموال التى يجمعها الولاة من التجار بقطية – كما سيأتى ذكره – ترسل إلى السلطنة أولًا بأول ، كما كان بعضهم يلتزم بدفع مبالغ مثلما اشترطه السلطان برقوق على الأمير علاء الدين ابن الطشلاق فى ربيع الأول ٧٩٣ هـ / فبراير ١٣٩٠ م ، عند تعيينه فى قطية ، على أن يؤدى كل شهر ١٣٠٫٠٠٠ درهم [١] .

هذا عن والى قطية ، أما عن بقية الموظفين بها ، فهناك إشارات فى بعض المصادر تشير إلى وظيفة النظر [٢] . وكان قد وليها تاج الدين عبد الرزاق بن أبى الفرج ، وقد أضيفت هذه الوظيفة إلى هذا الأمير مع وظيفة الوالى فى ١٥ ربيع الآخر سنة ٧٩٨ هـ / يناير ١٣٩٦ م . فجمع بذلك بين النظر والولاية [٣] واستمر على ذلك حتى ٢٦ شوال ٨٠٣ هـ / يونيه ١٤٠٠ م [٤] . كما وجدت أيضًا وظيفة الصيرفى والمباشر ، اللتان وليهما تباعًا تاجُ الدين عبد الرزاق الآنف الذكر ، غير أن وظيفة الصيرفى كانت أقل من النظر والمباشرة « وكان ابتداء أمره صيرفيًا بقطية ، وترق حتى باشَرَ بها ، ثم ولى النظر إلى أن جمع بين النظر والولاية » [٥] كما ولى وظيفة الاستيفاء [٦] ، علاوة على هذا فإن هناك دلائلَ تشير إلى وجود وظيفة شاد الدواوين [٧] ، ووظيفة القاضى [٨] .

وعلى أى حال فإن الاهتمام بقطية الذى تمثل فى جهازها الإدارى وانتقاء ولاتها من بين ذوى المكانة والحظوة ، جاء نتيجة لأهمية موقعها كحلقة وَصْل بين مصر والشام ، سواء فى المراسلات البريدية أو فى لقاء الأمراء أو السلاطين ، أو الجيوش ، أو توديعهم واستقبالهم .

---

(١) انظر المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٢ ص ٧٣٦ .
(٢) انظر المقريزى : السلوك جـ ٢ ق ١ ص ١٥٦ .
(٣) المصدر السابق والجزء ، ص ٨٥٤ . وانظر ابن قاضى شهبة : نفس المصدر والجزء ، ص ٥٧٧ .
(٤) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٣ القاهرة ١٩٧١ ص ١٠٢٠ .
(٥) المصدر السابق جـ ٣ ق ٢ ص ٨٥٤ . وانظر : ابن إياس : نفس المصدر جـ ١ ق ٢ ص ٥١٦ .
وأيضًا : إيرا مارفين لابيدوس : نفس المرجع ص ١٩٢ .
(٦) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٢ ص ٩٢٤ .
(٧) المصدر السابق جـ ٢ ق ١ ص ١٥٦ .
(٨) ابن دقماق : الانتصار جـ ٤ ص ٥٣ . وانظر محمد رمزى : القاموس الجغرافى ق ١ ص ٣٥٠ .

ولا يخفى عنا أنه فى عصر سلاطين المماليك بالذات كانت بلاد الشام تمثل الجناح الشرق للدولة وأطلق على الدولة اسم دولة البرين والبحرين ، إشارة إلى أنها تتألف من برى مصر والشام ، مما قوى الروابط بين القطرين وأدى إلى زيادة العناية بمراكز الأتصال بينهما ، فقطية كانت بمثابة علامة بارزة لمن يخرج من مصر وإلى الشام أو من يدخل مصر من الشام [١] ، وكانت تضرب عليها الإقامات السلطانية ، كما حدث فى شهر شعبان ٨٠٢ هـ / ابريل ١٣٩٩ م [٢] ، وورد فى المصادر أن السلطان المؤيد شيخ المحمودى عزم على السفر فى ٢٣ محرم ٨٢٠ هـ / مارس ١٤١٧ م ، فعرف أن نائب حلب قادمٌ ووصل قطية فى ثمانى هُجُن ، فأمر السلطان بتلقيه [٣] ، وأن نائب طرابلس عزم على الحضور إلى القاهرة بدون إذن السلطان فى ٤ رجب ٨٦٥ هـ / أبريل ١٤٦٠ م ، ثم ترد الإشارات أنه لم يعبر قطية [٤] ، وورد أيضًا أنه فى آخر شوال عاد الأمير شرف الدين بن غريب من قطية بعد وداع الأمير الدوادار الكبير [٥] ، وفى رمضان ٨٢٢ هـ / أكتوبر ١٤١٩ م جاءت الأخبار بأن السلطان المؤيد شيخ المحمودى قدم إلى قطية قادمًا من الشام ، فخرج الأمراء وأرباب الدولة للقائه [٦] .

وفضلًا عمًا تقدم ، فإن قطية كانت مركزًا بريديًا مهمًا لربط مصر بالشام ، فتواجد بها برج للحمام الزاجل [٧] . ويذكر القلقشندى عن أهميتها البريدية : « ثم منها إلى قطية ، وهى قرية صغيرة بها تؤخذ المرتبات السلطانية من التجار الواردين إلى مصر والصادرين منها .. فيكون من القاهرة إلى قطية اثنا عشر بريدًا ... » [٨] ومن ثم فإن الأخبار كانت تأتى إلى مصر من الشام وبالعكس عن طريق قطية ، فقد أوردت بعض المصادر أن البريد جاء من قطيه بـ ... [٩] وجاء الخبر من قطية

---

(١) الدوادارى : الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر ص ١١٥ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ١٠١٥ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٤ ص ٤٤ .

(٤) المصدر السابق جـ ١٦ ص ٢٢٦ .

(٥) الصيرفى : أنباء الهصر بأبناء العصر ص ٢٨١ .

(٦) ابن إياس : نفس المصدر جـ ٢ ص ٤٩ .

(٧) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٣٩٢ .

(٨) المصدر السابق جـ ١٤ ص ٣٧٧ .

(٩) الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان تحقيق حسن حبشى ص ١٩٥ .

أن ... [١] وأنه فى مستهل شهر رمضان ٧٩٣ هـ / أغسطس ١٣٩٠ م قدم البريد من قطية مخبرًا بأن السلطان برقوق نزل بها هو ومن معه فى غاية الأمن والسلامة ، وفى ١١ محرم ٧٩٤ هـ / ديسمبر ١٣٩١ م ورد البريد مخبرًا بأن السلطان حَلّ رِكابه من قطية [٢] . وفى ٦ ذى الحجة ٨٠٧ هـ / يونية ١٤٠٥ م سقط الطائر من بلبيس بنزول الأمراء قطية [٣] . وعندما بدأ نظام البريد يختل أصدر السلطان المملوكى فى جمادى الآخرة ٧٤١ هـ / نوفمبر – ديسمبر ١٣٤٠ م أمرًا ؛ ألّا يركب البريد إلّا من يأذن له السلطان فى ركوبه ويكون معه ما يثبت ذلك » وأن يُفَتَّشَ بقطية من ورد ، فمن وجد معه ورقة وكتب لغير السلطان أُخذت منه وحُملت إلى السلطان » [٤] .

يُضاف إلى ذلك أن المصادر أوردت ما أقطعه الملوك والسلاطين للأمراء بقطية ، فنجد السلطان الناصر محمد بن قلاوون قطع جزءًا كبيرًا منها للعاجزين من الجُند ، وقرر لكل منهم ثلاثة آلاف درهم [٥] . ثم يخرج ذات السلطان قطية من أقطاع أولئك الجند ويُضيفها إلى الخاص [٦] ، كما أقطع جزءًا من قطية للأمير تمرتاش بن جوبان إلى أن ينحل له إقطاع يناسبه [٧] .

ومما سبق نلاحظ هذا الاهتمام المنقطع النظير بتلك المنطقة الحيوية ، ولعل ذلك لا يرجع إلى موقعها الهام بالنسبة لمصر فحسب ، بل لما تحكمت فيه من الداخل والخارج إلى ومن مصر كما سبق توضيحه ، إذ كانت مركز تفتيش وتحصيل أموال من التجار ، فيتم التحقق من الشخصيات الداخلة إلى مصر من التجار الواصلين فى البر من الشام والعراق وما ولاهما » وقد جعلت (قطية) لأخذ الموجات ، وحفظ الطرقات ، وأمرها

---

(١) ابن قاضى شهبة : نفس المصدر والجزء ص ٢٩٨ ، ٣٢٥ ، ٣٨٠ .

(٢) الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ص ٣٣٣ ، ٣٤١ .

(٣) ابن إياس : نفس المصدر ص ٧١٩ .

(٤) المقريزى : السلوك جـ ٢ ق ٢ ص ٥١٦ .

(٥) المصدر السابق جـ ٢ ق ١ ص ١٥٦ . انظر : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٥٣ .

(٦) المقريزى : السلوك جـ ٢ ق ١ ص ١٦٣ .

(٧) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى جـ ٤ تحقيق محمد محمد أمين ، القاهرة ١٩٨٦ ص ١٤٠ .

مهم ، ومنها يطالع بكل صادر ووارد » [١] ، ومن يسمح له باجتياز تلك المنطقة يمنح براءة (جواز) يحملها بعد إجتيازه [٢] ، ومنعاً للتهرب كان يتم ختم وتسوية الرمل حول قطية ليلا حتى يتمكنوا فى الصباح من التعرف على من يمر عليه بدون إذن جمركى [٣] ، وكان من يحاول التهرب ليلاً من المرور بهذه المنطقة الجمركية كان الجهاز القائم على عملية التفتيش – وكان يرأسه أمير برتبة طبلخاناه – يستعين ببعض العربان لتتبع أثر الهاربين والقبض عليهم ومعاقبتهم [٤] . وهذا لا يمنع من أنه حدثت بعض الاستثناءات لبعض العابرين بقطيه ، فيذكر ابن بطوطه أنه أثناء عبوره لها فى شعبان ٧٢٦ هـ / يوليه ١٣٢٥ م أن متولى الجمرك فيها كان عز الدين استادار أقمارى ويساعده عبد الجليل المعروف بالوقّاف ، وقد أجاز لابن بطوطة ومن معه من المغاربة المرور بدون اعتراض ، لأن متولى الجمرك مغربى الأصل [٥] ، بالإضافة إلى ذلك فإنه كانت هناك بعض المُسامَحات تُمنح للتجار من نواب الشام « بقدر معين يحصل الوقوف عنده » [٦] . وأيّاما كان الأمر – إذا كانت هذه الحالات نادرة الحدوث – فإنها تدل على وجود استثناء جمركى لذوى المعرفة .

على أى حال ، فإنه قُدرت قيمة ما يتحصل عليه من التجار فى قطية بقيمة العُشر مما يحملون [٧] ، وإنْ ذكر البعض أن هذه القيمة تراوحت بين خمسة وعشرة فى المائة [٨] . وكانت هذه النسبة عادة تُحَصَّل كأموال ، ولم تحصل عينى [٩] ، إلا فى حالات نادرة عندما يكون الوارد قُماشًا أو غيره فتُؤخَذ النسبة من نوعه [١٠] . وكان دَخْل منطقة جمارك قطية من المال فى اليوم الواحد مايقرب من ألف دينار من الذهب [١١] .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٠١ ، ص ٤٦٦ .
(٢) ابن دقماق : الانتصار بواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص ٥٣ .
(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٣٧٨ .
(٤) ابن بطوطة : نفس المصدر جـ ١ ص ١١٢ – ١١٣ .
وانظر جاستون فيت : المواصلات فى مصر ترجمة / محمد وهبى ، القاهرة ١٩٣٧ م ص ٤٨ .
(٥) ابن بطوطة : نفس المصدر جـ ١ ص ١١٣ .
(٦) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٣ ص ٤٩ ، ٤٠ .
(٧) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ١ هامش ص ٣٠٣ .
(٨) ايرامارفين لابيدوس : نفس المرجع ص ٥١ .
(٩) الصولى : نزهة النفوس والأبدان ص ١٠٧ .
(١٠) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٦٦ .
(١١) ابن بطوطة : نفس المصدر جـ ١ ص ١١٣ . وانظر ايرامارفين لابيدوس : نفس المرجع ، ص ٥١ .

فإنه فى السبت ١٧ ربيع الآخرة ٨٧٥ هـ / أكتوبر ١٤٧٠ م صدر أمر سلطانى بإبطال مكس قطية ، وأبلغ الناس بذلك [١] ، والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هو : هل كان هذا المسلك نتيجة ثراء الخزانة السلطانية وعدم حاجتها إلى أموال ، أو أن السلطنة رغبت فى تنشيط الحركة التجارية البرية بين مصر والشام شطرى السلطنة المملوكية ؟ يبدو أن تلك الفترة – سلطنة قايتباى – كانت تُعد من أزهى فترات الدولة المملوكية ، وعليه فقد صدرت تلك الأوامر السابقة الذكر .

على أى حال إذا كان هذا هو دخل قطية اليومى ، فهل أثر ذلك على معيشة أهلها فى الوقت الذى غدت نقطة هامة وبارزة فى الطريق بين مصر والشام ، بدءًا من الفرما ثم قطية ثم الوارده فالعريش ثم رفح [٢] ؟ .

تذكر بعض المصادر أن بها سُكَّانًا ونخيلاً [٣] ، وبيوتهم صرائف من جريد النخل [٤] ، وأكثر طعامهم من السمك ، لقربهم من البحر [٥] ، والماء عندهم غير طيبة ، وشربهم من ركية عندهم جائفة ملحة ، وبها أسواق للخبز ، ولم تصل درجة عمل « الخبز » إلى الجودة ، لأنه وجدت به رمال أثناء تناوله فى الأكل « فلا يكاد يبالغ فى مضغة » . ويضيف بعض الجغرافيين أن هذه الملاحم الطبيعية والبشرية للموضع فيها من الدقة والشمول مع الإيجاز ما لا يمكن معه أن نضيف كثيرًا عن خصائص المكان بمقياس العصر [٦] ، وعلى ما يبدو أن حياة السكان لم تتأثر بما عاد على قطية من الأموال الجمركية ، فربما قصر ذلك المال على الوالى والموظفين القائمين على أعمال الجمركة دون غيرهم .

غير أن قطية توفر بها ماتوفر فى أى منطقة أخرى مثل الجامع والمارستان [٧] . وعلى مايبدو أن الجامع قديم النشأة أما المارستان فيرجع نشأته إلى عصر سلاطين

---

(١) المصدر السابق ص ٢١٧ ، ٢٢٠ . وأيضًا ابن إياس : نفس المصدر جـ ٣ ص ٥٤ .

(٢) عباس عمار : نفس المرجع ص ٤٤ .

(٣) ابن دقماق : الانتصار بواسطة عقد الأمصار ، ص ٥٢ .

(٤) ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ص ٤٣٥ . وانظر عبد العال الشامى : مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموى ص ٢٠ .

(٥) ابن حوقل : كتاب صورة الأرض ص ١٤٤ .

(٦) عبد العال الشامى : نفس المرجع ص ٢٠ .

(٧) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ١ هامش ص ٣٠٣ ، وانظر : البيان والإعراب هامش ص ٦١ .

المماليك [١] ، كما توفر بقطية بعض الدكاكين ليشترى منها المسافر مايحتاج إليه [٢] .

وقد كان غالب سكان قطية من العربان الذين ينتمون إلى قبائل وبطون وأفخاذ مختلفة ، فمنهم قبيلة « ثعلبة » [٣] ، التى جاءت إلى تلك المنطقة أثناء دخول صلاح الدين الأيوبى مصر [٤] ، كما وجدت أيضًا بطن « بنو بياضة والأخارسة (الأحادسه) [٥] . وعربان العايد وهلبا سويد ، وهم بطن من بطون زيد بن حرام ابن جذام » [٦] .

وقام كل جماعة من هؤلاء العربان بمهمة فى قطية ، فكان على قبيلة العايد حراسة وخفر البدرية [٧] ، وبعضهم اهتم بحراسة ميناء الطينة [٨] ، ومنهم من ساعد الموظفين القائمين على جمرك قطية وتتبُّع التجار والمارين من أخذ النسبة المقررة عليهم [٩] . وفى كل الأحوال كان العربان جميعًا يستقبلون كبار الأمراء عند عبورهم قطية ، مثلما حدث عند مرور الأمير « يشبك » فى جُمادى الأولى سنة ٨٠٧ هـ / نوفمبر ١٤٠٤ م ، إذ أقام له العربان التقادم ورحبوا به [١٠] . ولم يقتصر دور العربان على الحراسة والترحاب بل تعدى إلى مساعدة سلاطين المماليك فى القضاء على الثائرين عليها ، وليس أدل على ذلك من هجوم عربان ميناء الطينة على الأمير مقبل الحسامى الدوادار الكبير ، وذلك فى المحرم ٨٢٤ هـ / يناير ١٤٢١ م ، وحاربوه ونهبوا خيوله وأثقاله وماكان معه ومع أتباعه من المماليك ، وطاردوه حتى فر على غراب من ميناء الطينة إلى الشام [١١] .

---

(١) ابن دقماق : نفس المصدر ص ٥٢ .

(٢) عبد العال الشامى : نفس المرجع ص ٥٨ .

(٣) القلقشندى : قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان ، تحقيق ابراهيم الأبيارى ، بيروت ١٩٨٢ هامش ص ٨٦ .

(٤) القلقشندى : نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ، تحقيق إبراهيم الأبيارى ، بيروت ١٩٨٠ ، ص ١٩٥ .

(٥) العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، تحقيق دوروثياكرا فولسكى ، بيروت ١٩٨٥ ص ١٧٨ .

(٦) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ١١٣٨ .

(٧) البدريه : هى الطريق الفوقانية بالبرية ، عرضها ثمانية أيام تسلكها التجار والمشورين عن الحقوق السلطانية الموجبة بقطية . انظر الدوادارى : الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر ص ١١٤ .

(٨) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٤ ص ٢٧٢ .

(٩) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١١٣ .

(١٠) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ١١٣٨ . وانظر : ابن إياس : نفس المصدر جـ ١ ق ٢ ص ٧٠٠ .

(١١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٤ ص ١٧٠ – ١٧١ .

غير أن هذا لا يعنى أن العربان كانوا على طول الخط فى جانب السلطنة المملوكية ، بل كانوا دائمًا مصدر إزعاج واضطرابات ومثيرى فتن كلما بدا لهم ضعف السلطنة فى مصر ، ولم يكن ذلك فى قطية فحسب ، بل فى كل الأقاليم بالسلطنة التى وُجد بها عربان ، وبالتالى ما إن يشعر العربان بضعف السلطنة حتى ينقلب دورهم من المساعدة إلى الهجوم على الأمراء والتجار . وتصور بعض المصادر ذلك فى حوادث شوال ٨٧٦ هـ / مارس ١٤٧١ م « ومن قطية إلى القاهرة لا يقدر واحد يُمَشّى أقل من مائتى جمل أو أكثر خوفًا من العربان وفسادهم » [١] وعند هزيمة المماليك أمام العثمانيين فى مرج دابق ٩٢٢ هـ / ١٥١٧ م وأثناء رجوع جموع المماليك من الشام هجم العربان عليهم « وجرى على العسكر من العربان ما لا جرى عليهم من عسكر ابن عثمان ، ووقع لهم ذلك بين قطية والصالحية » [٢] ، ثم زادت هجمات العربان بعد ذلك على قطية ، كما حدث فى ٩ ذى الحجة ٩٢٦ هـ / نوفمبر ١٥١٩ م ، وفى المحرم ٩٢٧ هـ / ديسمبر ١٥٢٠ م [٣] . أى بعد زوال السيادة المملوكية من مصر والشام .

وإذا تركنا آثار العربان السلبية على قطية ، فإننا نجدها قد لاقت مثل غيرها من المناطق كثيرًا من التخريب والدمار ، سواء من جراء الهجمات المعادية للسلطنة أو الأمراض التى انتشرت فى هذه العصور ، فإبّان حركة يلبغا الناصرى ضد السلطنة المملوكية وتقدمه إلى مصر ، لم يستطع ابن الطشلاق والى قطية الصمود فى وجه يلبغا الناصرى ، وأرسل حريمه إلى القاهرة فى جمادى الأولى ٧٩١ هـ / مارس ١٣٨٩ م ، وعندما وصل يلبغا الناصرى إلى قطية استولى عليها وتقدم إلى القاهرة [٤] . وفى رمضان ٨٠٩ هـ / فبراير ١٤٠٦ م قدم الأمير أزدمر من الشام ونزل قطية وخربها وعاد إلى غزة [٥] . علاوة على ذلك فإنه أثناء هجوم الأمير شيخ ونوروز على مصر فى رمضان ٨١٣ هـ / ١٤١٠ – ١٤١١ م تقدما إلى قطية واستوليا على مافيها ،

---

(١) الصيرفى : أنباء الهصر بأبناء العصر ص ٤١٩ .

(٢) ابن إياس : نفس المصدر جـ ٥ ص ٨٢ .

(٣) المصدر السابق والجزء ص ٣٧٢ ، ٣٧٨ – ٣٧٩ .

(٤) ابن الفرات : نفس المصدر مجلد ٩ جـ ١ ص ٧٤ .

(٥) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ١ القاهرة ١٩٧٢ ص ٤١ . وانظر ، ابن إياس : نفس المصدر جـ ١ ق ٢ ص ٧٦٨ .

ولم يستطع الأمير فخر الدين عبد الغنى ابن أبى الفرج والى قطية مواجهة تلك الجموع المهاجمة ، فعندئذ التجأ إلى الطينة ليقى نفسه شر هذه الجحافل التى لا طاقة له بها (١) . علاوة على ذلك فإن الأمير عيسى بن بقر خرب قطية فى ذى القعدة ٨٧٥ هـ / أبريل - مايو ١٤٧٠ م فأمر السلطان بالقبض عليه وضربه (٢) .

هذا عن الهجمات المعادية على قطية ، أما عن الأمراض بها ، فإنها عانت من الأوبئة ، إذ انتشر بها الطاعون فى جُمادى الآخرة ٧٤٩ هـ / سبتمبر ١٣٤٨ م ، ومات أكثر أهلها « وصارت جثثهم تحت النخيل وعلى الحوانيت » ، ولم يبق إلا عدد قليل ، بما فيهم الوالى الذى طلب من السلطنة الاستعفاء من وظيفته خوفًا من الموت ، وقد قال الصلاح خليل بن أيبك الصفدى :

قد قلت للطاعون وهو بغـزة   قد جال من قطيا إلى بيروت
أخليت أرض الشام من سكانها   وحكمت ياطاعون بالطاغوت (٣)

وقد انتشر الطاعون مرة أخرى بقطية فى جمادى الآخرة ٩٠٣ هـ / فبراير ١٤٩٨ م ، ولم تقلّ خطورته على أهالى قطية من المرة السابقة (٤) .

وخلاصة القول : إن قطية قامت بدور مهم عند الطريق البرى الشرقى لمصر فى العصور الوسطى ، فهى لم تقف عند دورها كمنطقة جمركية تشكل جزءًا فى ميزانية السلطنة المملوكية فحسب ، بل كنقطة حراسة وحاجز بين مصر والشام . ويذكر البعض أن قطية قبل شق قناة السويس كانت تابعة لمديرية الشرقية ، أما الآن فأُلحقت بالعريش ، ومازال العربان يسكنونها (٥) ، ولم يبق منها إلا أطلالها فى الطريق بين القنطرة والعريش على مسافة خمسة وأربعين كيلومترًا فى الشمال الشرقى من القنطرة (٦) .

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ١ ص ١٥٢ .
(٢) الصيرفى : أنباء الهصر بأبناء العصر ص ٢٢٠ .
(٣) المقريزى : السلوك جـ ٢ ق ٣ ص ٧٧٥ ، ٧٨٨ .
(٤) ابن إياس : نفس المصدر جـ ٣ ص ٣٨٦ .
(٥) نعوم بك شقير : تاريخ سيناء القديم والحديث ، القاهرة ١٩١٦ م ، ص ١٧٤ .
(٦) محمد رمزى : القاموس الجغرافى ق ١ ص ٣٥٠ .

ومن معالمها الأثرية قلعة مبنية بالحجر المنحوت ، وبئر رممه إبراهيم باشا أثناء حملته على سوريا ، ثم رممه عباس باشا فى القرن الحالى ، وبها عدة أكوام أثرية أهمها تل لكنيسة بها آثار رومانية وبيزنطية وعربية ، وشاهدى قبر عليهما كتابات كوفية فى مبنى مشيد فوق قبر أحد الأولياء ويسمى المزين ، وعلى مسافة من قطية هناك منطقة أثرية أخرى تعرف باسم « قصر غيط » عثر فيها على كنيسة ومعبد نبطى يرجع إلى القرن الأول الميلادى [1] » .

• • •

(١) انظر : أحمد رمضان أحمد : شبه جزيرة سيناء فى العصور الوسطى ص ١٤٣ – ١٤٤ .

مصادر ومراجع البحث

أولا – المصادر :

– ابن إياس : (محمد بن أحمد بن إياس) ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م .

– بدائع الزهور فى وقائع الدهور خمسة أجزاء ، تحقيق محمد مصطفى – القاهرة ٨٢ – ١٩٨٥ م .

– ابن بطوطة : (محمد بن عبد الله اللواتى) ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م

– تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار جـ ١ باريس ١٩٨٨ م .

– ابن تغرى بردى : (يوسف بن تغرى بردى الأتابكى جمال الدين أبو المحاسن) ت ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠ م

– المنهل الصاف والمستوفى بعد الوافى جـ ٣ تحقيق / نبيل عبد العزيز – القاهرة ١٩٨٥ م .

– النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، الأجزاء من السابع حتى السادس عشر . القاهرة ٣٨ – ١٩٧١ م .

– ابن الجيعان : (الشيخ الإمام شرف الدين يحيى بن المقر بن الجيعان) ت ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م

– التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية القاهرة ١٨٩٨ م

– ابن حوقل النصيبى :

– صورة الأرض ، القسم الأول الطبعة الثانية ليدن ١٩٦٧ م .

– ابن خرداذبة :

– المسالك والممالك ليدن ١٣٠٦ هـ .

– ابن دقماق : (إبراهيم بن محمد بن أيد العلائى) ت ٨٠٩ هـ/ ١٤٠٦ – ١٤٠٧ م

– الانتصار بواسطة عقد الأمصار جـ ٤ الطبعة الأولى بولاق ١٣٠٩ هـ .

– الدواداری : (أبو بكر عبد الله بن أيبك الدوادارى) ت ٧٣٣ هـ / ١٣٣١ م

– الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٧٢ م .

– الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية ، تحقيق أولرخ هارمان القاهرة ١٩٧١ م .

– الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر ، تحقيق هانس رويمر القاهرة ١٩٦٠ م .

- السبكى : (تاج الدين عبد الوهاب) ت ٧٧١ هـ / ٦٩ - ١٣٧٠ م
- معيد النعم ومبيد النقم ، بيروت ١٩٨٦ م .
- السيوطى : (جلال الدين عبد الرحمٰن) ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ - ١٥٠٦ م
- حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . جزءان ٦٧ - ١٩٦٨ م .
- ابن شاهين : (غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى) ت ٨٧٢ هـ / ١٤٦٨ م
- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك تحقيق بولس راويس ، باريس ١٨٩٤ م .
- الشجاعى : (شمس الدين)
- تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده ، تحقيق براره شيفر ، ق ١ فسبادن ١٩٧٨ .
- ابن الصيرفى : (على بن داود الجوهرى الصيرفى) ت ٨٧٩ هـ / ٧٤ - ١٤٧٥ م
- أنباء الهصر بأبناء العصر ، تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ١٩٧٠ م .
- نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان ، تحقيق حسن حبشى جـ ١ القاهرة ١٩٧٠ م .
- ابن عبد الحق : (صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق)
- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع جـ ٢ ليدن ١٨٥٢ م .
- ابن عبد الظاهر : (محيى الدين) ت ٦٩٢ هـ / ١٢٩٢ م
- تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور .تحقيق مراد كامل ومحمد النجار الطبعة الأولى ١٩٦١ م .
- العمرى : (ابن فضل الله العمرى شهاب الدين أبى بكر) ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م
- مسالك الأبصار فى مسالك الأمصار ، تحقيق / دوروثياكرا فولسكى بيروت ١٩٨٥ م .
- العينى : (بدر الدين محمود) ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م
- عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، (١) تحقيق محمد محمد أمين القاهرة ١٩٨٧ م
- أبو الفدا : (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن الملك الأفضل بن أيوب صاحب حماة) ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م
- تقويم البلدان . باريس ١٨٤٠ م .
- المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ بيروت (د . ت) .

- ابن الفرات : (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات) ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م
- تاريخ ابن الفرات ، مجلد ٩ جـ ١ تحقيق قسطنطين زريق ، بيروت ١٩٣٦ م ، ومجلد ٩ جـ ٢ تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين ، بيروت ١٩٣٨ م .
- ابن قاضى شهبة : (تقى الدين أبو بكر بن أحمد بن قاضى شهبة) ت ٨٥١ هـ / ١٤٤٨ م ،
- تاريخ ابن قاضى شهبه مجلد ١ جـ ٣ تحقيق عدنان درويش (د.ت)
- القلقشندى : (الشيخ أبو العباس أحمد) ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م ،
- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية .
- قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان ، تحقيق إبراهيم الأبيارى بيروت ١٩٨٢ م .
- نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ، تحقيق إبراهيم الأبيارى – بيروت ١٩٨٠ م .
- الكتبى : (محمد بن شاكر) ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ – ١٣٦٣ م ،
- عيون التواريخ جـ ١ ، تحقيق نبيلة داود فيصل السامر ، العراق ١٩٨٤ م .
- المقريزى : (تقى الدين أحمد بن على) ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م
- البيان والإعراب عمّا بأرض مصر من الأعراب تحقيق عبد المجيد عابدين ، الطبعة الأولى القاهرة ١٩٦١ م .
- السلوك لمعرفة دول الملوك ، طبعة دار الكتب .
- شذرات العقود فى ذكر النقود .
- ابن الوردى : (زين الدين عمر) ت ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ – ١٣٥٠ م
- تتمة المختصر فى أخبار البشر جـ ٢ مصر ١٢٨٥ هـ .
- ناصر خسرو : (علوى) ،
- سفر نامه ، ترجمة يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥ م .
- ياقوت الحموى : (أبو عبد الله ياقوت الحموى الرومى البغدادى) ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م ،
- معجم البلدان طهران ١٩٦٥ م .

ثانيا – المراجع :

– أحمد رمضان أحمد :

– شبه جزيرة سيناء فى العصور الوسطى . القاهرة ١٩٧٧ م .

– ألفرد . ج . بتلر :

– فتح العرب لمصر ، ترجمة محمد فريد أبو حديد . القاهرة ١٩٣٣ م .

– ايرا مارفين لابيدوس :

– مدن الشام فى العصر المملوكى ، ترجمة سهيل زكار . دمشق ١٩٨٥ م .

– جاستون فيت :

– المواصلات فى مصر ترجمة محمد وهبى ، مقال فى كتاب مصر الإسلامية ، تأليف زكى حسن وآخرين ، القاهرة ١٩٣٧ م .

– سعد بن محمد بن حذيفة الغامدى :

– الملك الناصر يوسف والمغول ،

مقال بمجلة آداب الإسكندرية ، المجلد ٣٤ لسنة ١٩٨٦ م .

– سعيد عاشور :

– العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٧٦ م .

– قبرص والحروب الصليبية القاهرة ١٩٥٧ م .

– عباس عمار :

– المدخل الشرقى لمصر ، مقال بمجلة الجمعية الجغرافية جـ ١ ، القاهرة ١٩٤٥ م

– عبد العال عبد المنعم الشامى :

– مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموى ، الطبعة الأولى ، الكويت ١٩٨١ م .

– عبد المنعم ماجد :

– الأطلس التاريخى للعالم الإسلامى فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٧ م .

– محمد رمزى :

– القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، القسم الأول ، القاهرة ٥٣ – ١٩٥٤ م .

– نعوم بك شقير :

– تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها ، القاهرة ١٩١٦ م .

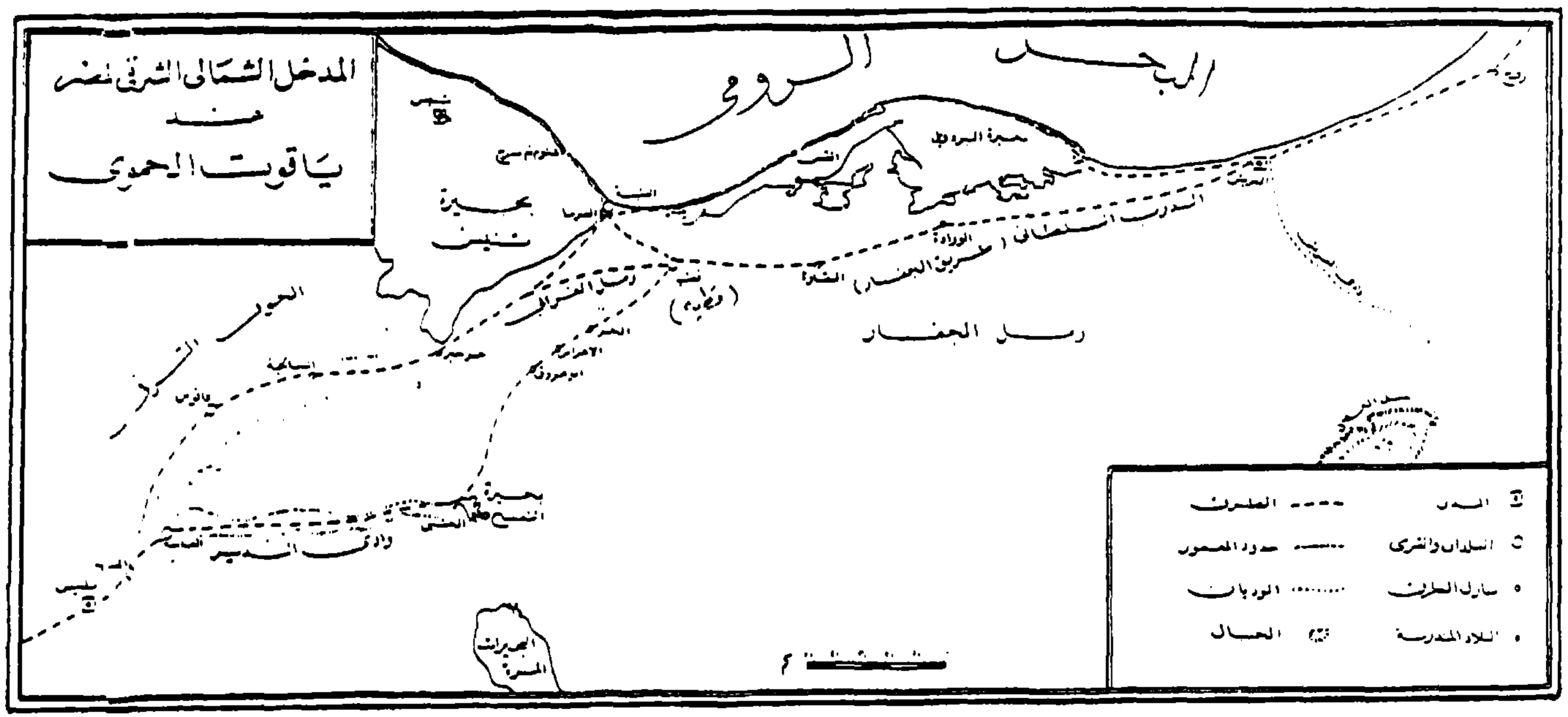

انظر عبدالعال الشامى : مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموى ، الكويت ١٩٨١م